قدميّ . واحرقني حرّ الهجيرة واستنزف ينبوع الحياة فيّ . لم تعد ترطب زهرتي بماء الايمان والرجاء فذبلت زهوري وتساقطت على الارض ذاوية فنثرها الهواء في كل الانحاء . . . كل هذا وانت لا ترحم ولا تشفق . اما الآن فها قد جمد الدم في عروقي وعلا جبهتي اصفرار الموت فاتيت اودعك الوداع الابدي الاخير . . . ! »

فصرخت صرخة اليأس :

« لا . لا تموتين بل تعيشين » فلم تنبس بينت شفة ، فاردفت قائلاً « ومن تكونين ايتها المخلوقة العجيبة : . . ؟ »

فقالت :

« يا اخي انا لست الآن شيئاً . . . لكنني كنت زهرة شبابك »

قالت وتوارت عني في غيوم السماء فمددت يدي فلم اقبض الاّ على زهور سطقت من اكليلها الوردي فاخذتها فاذا هي ذابلة لا اثر فيها لطيبها السابق ولنضارتها السالفة . فذرفت دموع الندامة وهتفت : « ربي اقبل توبتي وامحُ خطيئتي واغسل ذنوبي يا ارحم الراحمين . . . ! »

الى السراية الصفراء

تدل الاحصآات الأخيرة في كل مملكة من العالم المعروف على ان عدد المجانين يزداد يوماً عن يوم وهي نظرية تخالف المألوف فان العالم كما نعتقد في تقدم الى الامام نحو المدنية والرقي العقلي ولا أدري ما

معنى هـذا التقدم الى الرقي العقلي مع ازدياد عدد المجانين ؟ ؟ ؟ مسألة فيها نظر

محسوس بل وملموس باليـد تقدم الصناعة ومشاهد بالعين تفوّق المكتشفين والمخترعين عن اسلافهم اذ لا أظن ان ابن آدم سبق فاخترع المنطاد او اكتشف الكهرباء في حقب الزمان الغابر او عثر على مجاهل الارض او اخترق اللحم باشعة فنظر العظم او استأصل المعدة وعمل جهازاً لحياة صاحبها فعاش بدونها او تطرف في الابحاث الكهربائية فكلم أخاه على بعد شاسع بلا واسطة او استخدمها لنقل صورة المتكلم في ثوان لتظهر أمام المخاطب

مع الاعتراف بكل ذلك لا أدري معنى لهذا التقدم مع ازدياد عدد المجانين الاَّ اذا كان ازدياد عددهم يعد تقدماً للجنون !!! او ان اكون أنا مجنوناً هربت من السراية الصفراء ولا عجب فكم بين الغير محبوسين بها من هم اجدر وأولى بدخولهم فيها مصفدين بالحديد مقيدين بالاغلال

روى لي أحد الثقاة ان رجلاً كان يدعى علي كچك من نسل الاتراك الذين تمصروا يسكن حياً بالقاهرة من الاحياء الوطنية خرج يوم جمعة للصلاة بالمسجد فلقيهُ رهط ممن لا خلاق لهم — وكثيرٌ ما هم — فابتدروه بقولهم « علي كشكش » وما زالوا بهِ حتى خلص منهم بدخوله الى المسجد . حبس نفسهُ في بيتهِ شهرين وظن بعد ذلك ان الرهط انقشع او نسيهُ فخرج في يوم جمعة الى المسجد ولكن القوم قابلوه بمثل ما فعلوا وزادوا على ذلك قولهم « حرامي المشمش » وما زالوا بهِ حتى جنّ

الرجل فتناول حجراً وضرب بهِ أحدهم فشج رأسه فاستاقوه الى المخفر ومنهُ الى المحكمة حيث كان المرحوم الشيخ محمد عبده على كرسي القضاء الأهلي ولما سأله القاضي عن جرمهِ اعترف ولم يجحده ولكنهُ قال انهُ فعل ذلك عن سبب فسأله القاضي عن السبب فقال « صلّ على النبي » فاجابهُ الامام فكرر الرجل طلب الصلاة على النبيّ مراراً والامام يجيبهُ الى ان ملّ القاضي من هـذه المطاولة فقال ألا تقص السبب ؟ فقال المجرم اذا كنت وأنت الامام المعروف مللتَ الصلاة على النبي أفلا أملّ انا من صياح هؤلاء خلفي بما اكره ؟

هذا هو احد المجانين جن من الناس وراح فريسة اخيهِ الانسان لا ذنباً جنى ولا جرماً ارتكب ولا حشيشاً تعاطى ولا شأواً قصده فلم يدركه فكأنما كلما تقدم الانسان تأخر وكلما داوينا جرحاً سال جرح

دخلت طور الكهولة وعركت شطراً طويلاً من الدهر وعاشرت الناس اجناساً متعددة باخلاق متباينة — عاشرتهم حسب اخلاقهم واني اقسم بمن يرحم روح المسكين « حرامي المشمش » اني عيت عن درس طباعهم ومعرفة طلباتهم

يعضك احدهم بنابيهِ ويجبهك لانك لا تصلي ويقول لمن حوله « أيبه » فان صلاة العشاء قد وجبت !!!

يذكر احدهم اخاه الانسان في غيبتهِ ذكراً مؤلماً حتى ليكاد يبكي من حدتهِ وحتى تظن انهُ اذا قابله قتله ، وقبل ان يتم اغتيابه يحضر ذلك المذكور بالسوء فيقفز المغتاب دون الجماعة للقياه ويأخذه ملء حضنه

ويقبله عشراً ويجامله ويفسح له مكاناً بجانبهِ ويشرب نخبهُ !!!

يسمع الجالسون ذلك ويرونهُ ولا يجرأ احدهم على صفع ذلك المغتاب الاثيم بل يسكت وهو بسكوتهِ يساعد على انتشار الرذيلة

يأخذك احدهم على معزل ويقول لك انهُ يريد ان يكلمك في أمر ذي شأن ولكنهُ سريّ جداً ويهمك الاطلاع عليهِ حتى اذا ما شوّقك الى سماعهِ استحلفك بالطلاق ان لا تبوح بهِ لأحد فاذا فعلت وحلفت قال لك ان فلاناً قال عنك كذا وكذا وكذا فتصبح في حيرةٍ لا انت بالقادر على مناقشة المغتاب الحساب لانك مقيد بالحلف ولا انت بالقادر على كظم غيظك فتبتلى بمرض في فكرك فتجن فتساق الى السراية الصفراء ولا ادري على من يكون الذنب في جنونك — أعلى المغتاب أم الجالسين معهُ الذين تجردوا من الشجاعة الادبية أم ذلك الذي بلّغك فكسر قلبك ؟

تضيق نفسك ليلة فتذهب الى محل التمثيل عسى ان يذهب بهمك فتجد المكان غاصاً بجمهور المتفرجين فينشرح صدرك وتظن اننا عرفنا اين نقضي سهراتنا حتى اذا بدأ التمثيل ووصل الممثل الى قطعة محزنة مثل موت « روميو » على قبر حبيبتهِ « جولييت » ثم موت « جولييت » ظهرت لك اخلاق القوم بكل مظهرها اذ ترى الجمع وقد اختبط — تسمع تصفيقاً حاداً وطلب استعادة تلك القطعة المحزنة ليس لأن الممثل او الممثلة اجاد او احسنت بل لظنهم ان تلك التأوهات التي مثلتها الممثلة احسن تمثيل انما هي خلاعة منها — ذلك لانهم لم يفقهوا معنى لما سمعوا —

ترى ذلك وتسمعهُ فتذهب الى بيتك محموماً بحمى دماغية فتجنّ فتؤخذ الى السراية الصفراء

تجول بطرفك بين من حولك فتجد شباكاً منصوبة للكيد بك خيوطها بايدي من احسنت اليهم فتصرف وقتك في التفكير فيما عساه ان يكون سبباً لانقلاب ذلك الاحسان الى هذه الاساءة فلا تجد سبيلاً لحل المعضلة فيختلط عليك الأمر فتجن فتؤخذ الى السراية الصفراء

تسمع السارق يفتخر امام الجمهور بسرقتهِ والزاني يحدث الناس بحوادث فحشه وفجر العاهرات معهُ والسكير يزهو على الحضور بنموذج عربدته والكاذب يُضحِك من حوله بنكات كذبه — فاذا ما وجهت بلومك الى احدهم هبَّ الجمع المحتشد حولهم ورموك بالغلظة وسوء الخلق ونسبوا أولئك المجرمين لخفة الروح والدم . فكأنما الناس قد أجمعوا امرهم على استحسان المنكر فاذا كنت حرًّا يجري في عروقك دم أحمر جننت فتؤخذ الى السراية الصفراء

احبس نفسك في بيتك بين اولادك او كتبك واذا مررت بقوم فمرّ بهم مر الكرام ولا تختلط بهم تعش سعيداً ، او فجهز وصيتك اذا اردت الاختلاط بالناس لانك ستجن حتماً وتساق الى السراية الصفراء

عطبره (السودان) محمد فاضل

(١٦)